جنـــاية أحمد أمين
على الأدب العربى
للدكتور زكى مبارك

– ٢٠ –

من كلام الحكماء : « نعوذ بالله من الحديث المعاد »

وإنما استعاذ الحكماء من الحديث المعاد لأنه شاهدٌ على انعدام القدرة على الابتكار والابتداع والخَلْق والإنشاء ، ولأنه يدل على استهانة المتكلم بأقدار من يخاطب من الرجال ، ولأنه يشهد بأن صاحبه قد لا يعنى ما يقول

وصديقنا القديم الأستاذ أحمد أمين موكَّلٌ بالحديث المعاد ينقله من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل ، وقد صحت فيه كلمة أحد النقاد القدماء فى سعيد بن حميد :

« لو قيل لكلام سعيد وشعره : ارجع إلى أهلك لما بقى معه شىء »

وكذلك نقول فى كلام أحمد أمين : فلو دعونا مقالاته ومؤلفاته بالرجوع إلى أهلها لما بقى معه شىء !

وما ظنُّكم برجل يتوهم أن القراء فى الأقطار العربية هم جميعاً أبناء الأمس ، وما فيهم قارئٌ واحد سمع من أخبار الأدب والمجتمع غير ما يتحدث به أحمد أمين ؟

وإليكم هذا الشاهد :

كان المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك ألقى محاضرة منذ خمس وعشرين سنة عن تطور المجتمع المصرى ، وقد نص فى تلك المحاضرة على الخطأ الذى ارتكبته مصر حين سمحت بأن ينقسم التعليم إلى شعبتين : شعبة دينية وشعبة مدنية ، وقال : إن هذا يعرِّض مصر لشهود الصراع بين طائفتين تختلف عقلياتهم أشد الاختلاف

وقد سمعتُ هذه المحاضرة وسمعها الأستاذ أحمد أمين ، فهل تعرفون ما الذى وقع ؟

وقع أن الأستاذ أحمد أمين فهم أن الشيخ الخضرى مات منذ أكثر من عشر سنين ، وأن الذين سمعوا تلك المحاضرة منذ خمس وعشرين سنة قد أنستهم الأيام ما كان فى تلك المحاضرة من آراء

وكذلك أعد القلم والدواة والقرطاس ليحدث قراء (الثقافة) بأن مصر ارتكبت جرماً فظيماً حين سمحت بأن ينقسم التعليم إلى شعبتين : شعبة دينية وشعبة مدنية ، وأن هذا عرَّض المجتمع المصرى لشهود الصراع بين طائفتين تختلف عقلياتهم أشد الاختلاف

وكيف قال هـذا الكلام ؟ قاله وهو يوهم القراء أنه من المبتكرات فى عالم الاجتماع !

ولم يكن الشيخ الخضرى أول من قال ذلك الكلام الذى سرقه أحمد أمين ، فقد تنبه المغفور له على باشا مبارك إلى هذه الفكرة منذ أكثر من سبعين سنة ، وعلى أساس هذه الفكرة أنشأ مدرسة دار العلوم ليخلق جيلاً يجمع بين الصبغة الدينية والمدنية ويكون أساساً للتطور المعقول

وهذه الفكرة عرض لها الكُتّاب بالنقد والشرح مرات كثيرة فى مدى أعوام طوال ، وفصلها المنفلوطى فى (النظرات) بعض التفصيل ، وإن كان ساقها فى مساق آخر هو التناحر بين الأخياف من أبناء الثقافة المدنية

من حق أحمد أمين أن يلخص كلام من سبقوه ليطلع عليه شبان هذا الجيل

ولكن هل راعى الأمانة العلمية وهو أستاذ مسئول ؟

هل رجع كل كلام إلى قائله كما يصنع أساتذة الجامعات ؟

لم يصنع شيئاً من ذلك ، وإنما انتهب ما انتهب ، ثم واجه القراء وهو مزهوٌّ مختال ، كأنه صار بالفعل من أهل الابتكار فى الميادين الأدبية والاجتماعية !

* * *

قد يقال : وأين هذا الكلام من الموضوع الأصيل ؟

وأجيب بأنى أريد أن أبين أن أغلاط أحمد أمين لم تكن أغلاط الرجل المجتهد ، وإنما هى أغلاط منهوبة مسروقة ليس فيها من جديد غير رقشها بحبر جديد فى ورق جديد !

وإليكم يساق الحديث

لبس أحمد أمين ثوب المفكر المبتكر وقال : إن الأدب الجاهلى جنى على الأدب العربى حين فرض عليه ما عرف الجاهليون من ألفاظ وأخيلة وتعابير وقواف وأوزان

وهذه الفكرة خطأ فى خطأ ، وهو نقلها عن بعض الكتاب الذى تكلموا فى النقد الأدبى بلا زاد من المعارف الأدبية ، وبلا سناد من فهم التطور الذى شهده العرب فى ميدان الحقائق الأدبية

وآفة الأدب فى مصر وفى غير مصر أنه معرض فى كل وقت لغارة الأدعياء ، فكل مخلوق يتوهم أن من حقه أن يقرأ الشعر والنثر قراءة الخبير بأسرار الدقائق الشعرية والنثرية ، وأن يوازن بين الشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين بعد أن تتيح له المقادير أن يفرق بين المنظوم والمنثور ، وبين الخطاب والكتاب ، وبين الألف والباء !

وهل كان من الصحيح أن الأدب الجاهلى جنى على الأدب العربى فى العصور الإسلامية ؟

إن العرب تحللوا من قيود الأدب الجاهلى منذ أول يوم توجهوا فيه إلى الاتصال بغيرهم من الممالك والشعوب

ويقول المبتدئون فى الأدب إن أبا نواس كان أول من ثار على التقاليد الجاهلية ، وهذا غير صحيح ، وإن صار من الحقائق المقررة عند بعض أساتذة كلية الآداب

والصحيح أن الثورة على التقاليد الجاهلية فى الأشعار والرسائل سبقت عهد أبى نواس بزمن بعيد . ولهذه الثورة شواهد فى العصر الأموى سنسوقها حين نجد ما يوجب ذلك ، أو حين ينطق الأستاذ أحمد أمين الذى خرج بالصمت عن لا ونعم ، والذى نزل بالبرج العاجى ضيفاً على الأستاذ توفيق الحكيم

قلت لكم غير مرة إن أحمد أمين قليل الاطلاع على تاريخ الأدب العربى ، فلو كان من المطلعين لعرف أن العرب بعد الإسلام أعلنوا ثورتهم على التقاليد الجاهلية ، وصرحوا بأن الأدب يتأثر بالزمان والمكان ، وأن أخيلة سكان الحواضر يجب أن تختلف عن أخيلة سكان البوادى ، وأن من يعيش فى مصر له أذواق تخالف أذواق من يعيش فى الحجاز أو العراق أو الشام أو المغرب أو فارس أو الهند

لو كان أحمد أمين من المطلعين لعرف أن من العرب فى القرن الثالث من صرح بأحكام يعجز عن التصريح بها من يعيشون فى هذه الأيام

هل تصدقون بأن من كتاب القرن الثالث من قال بأنه لا يجوز أن نحاكى القرآن فى جميع التعابير ؟

وهل فى الدنيا جرأة أعظم من جرأة الرجل المسلم حين يقول فى زمن شتاب الإسلام بوجوب التحرر من بعض أساليب القرآن ؟

وهل يجوز القول بأن من جاز عندهم الخروج على الأساليب القرآنية تصعب عليهم الثورة على التقاليد الجاهلية ؟

أنظروا كيف يقول ابن المدبر فى « الرسالة العذراء » :

« واعلم أنه لا يجوز فى الرسائل ما أتى فى آى القرآن من الإيصال والحذف ، ومخاطبة الخاصّ بالعامّ ، والعامّ بالخاصّ ، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن أقواماً فصحاء فهموا عنه جلّ ثناؤه أمرَه ونهيَه . والرسائل إنما يُخاطَبُ بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب. وكذلك ينبغى للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك والمعنى الملتبس ، فإنه إن ذهب على مثل قوله تعالى (واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) وقوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) احتاج أن يبين أن معناه (إسأل أهل القرية وأهل العير) و (بل مكركم بالليل والنهار) ومثله فى القرآن كثير »[1]

فما معنى هذا الكلام ؟

معناه أن العرب فهموا أن القرآن وهو عندهم تنزيل من حكيم حميد راعى عقلية العصر الذى نزل فيه تخاطب الناس بما يفهمون ، وأنه حين يتغير الناس بتغير الزمان لا يجب أن نخاطبهم بالأسلوب الذى استجازه القرآن ، لأنه نزل على قوم يدركون الحذف والإيصال ومخاطبة الخاصّ بالعامّ ، والعامّ بالخاصّ

فهل يعقل أن يكون الأدب الجاهلى أقدس عندهم من القرآن ؟

وهل يجوز اتهام العقلية العربية بالجمود والخمود لتصح أوهام أحمد أمين ؟

أنا أتحدى أى باحث أن يثبت أن العرب لم يدركوا ما يوجبه اختلاف الزمان والمكان فى تلون الصور والأفكار والأساليب

أتحدى أى باحث أن يقيم الدليل على أن العرب التزموا محاكاة التعابير القرآنية والنبوية

وكيف فات أحمد أمين أن العرب لم يلتزموا وحدة الوزن والقافية على نحو ما التزم الجاهليون ؟

ألم تصل إليه أخبار التجديد والتنويع فى القوافى والأوزان عند أهل المشرق وأهل المغرب ؟

ألم تصل إليه أخبار الموشحات والأزجال ؟

(١) الرسالة العذراء ص ١٨ طبعة زكى مبارك

ألم يسمع بما دخل فى الشعر العربى من الأخيلة الفارسية والمصرية والأندلسية ؟

ألم يحدثه أحد بأن الذوق الأدبى عند مهيار الديلمى يخالف الذوق الأدبى عند الشريف الرضى ؟

ألم يعلم بأن عمارة اليمنى له مذاهب فى القول تخالف مذاهب ابن حمديس ؟

ألم يقرأ ما كتب أبو الحسن الجرجانى فى اختلاف الأذواق باختلاف الوجوه والطباع ؟

ألم تحدثه كتب الفقه بأن الشافعى تغيرت حاسته التشريعية بالتردد بين الحجاز ومصر والعراق ؟

ألم يسمع بأن علماء البلاغة فى مصر لهم مسالك تخالف مسالك أمثالهم فى فارس ؟

ألم يصل إليه القول بأن كتاب الإحياء له ألوان مختلفات بسبب تنقل المؤلف من أرض إلى أرض ؟

ألم يشهد تطور الأسلوب عند ابن عربى فى الفتوحات المكية بسبب اختلاف موطن التأليف ؟

ألم يعرف بأن شعراء اليتيمة تختلف أذواقهم باختلاف البلاد ؟

ألم يدرك أن أشعار البهازهير لها مذاق غير مذاق أشعار ابن زيدون ؟ ألم يلمس الخشونة والنعومة فى تردد ابن الجهم بين البادية وبغداد ؟

وهل بقى أحمد أمين على حال واحد حتى يبقى الناس جميعاً على حال واحد ؟

إن أحمد أمين القاضى الشرعى كانت له مسالك فى الحكم على الأشياء تخالف مسالك أحمد أمين الأستاذ فى كلية الآداب

فكيف يقال إن الشاعر الذى يعيش فى الأندلس أو فى فارس لا يزال خاضعاً لأذواق أسلافه القدماء فى الحجاز أو العراق ؟

إن أذواق أهل العلم فى البلد الواحد تختلف باختلاف المعهد الذى يتخرجون فيه ، مع وحدة الزمان ، ومع تقارب المشارب والميول . فالمتخرج فى الأزهر غير المتخرج فى دار العلوم وغير المتخرج فى كلية الآداب . وقد كان مفهوماً عند أهل مصر أن التخرج فى الأزهر غير التخرج فى الجامع الأحمدى مع التقارب الشديد فيما يلقى هنا وهناك من المعارف العقلية والنقلية . وأهل فرنسا يفهمون أن المتخرج فى جامعة باريس غير المتخرج فى جامعة ليون

وإنما كان الأمر كذلك لأن اختلاف المكان يؤثر فى الأذواق حتى صح القول بأن الأدب الإنجليزى فى انجلترا يبعد بعض البعد أو كل البعد عن الأدب الإنجليزى فى أمريكا . وكذلك يقال فى الأدب الفرنسى حين يصدر عن أرض فرنسية أو بلجيكية أو سويسرية

فكيف يمكن أن يتفرد العرب بالخروج على هذا القانون الذى تفرضه طبيعة الوجود على سائر الناس

وهل يجوز فى ذهن عاقل أن تكون جيمية ابن الرومى نسخة ثانية من جيمية الشماخ لوحدة القافية ؟

وهل يصح أن تكون تائية حافظ ابراهيم فى رثاء محمد عبده صورة من تائية دعبل فى التوجع لأهل البيت بحجة الاتفاق فى الوزن والقافية ؟

إن أحمد أمين ينظر فى ديوان جاهلى وديوان إسلامى فيرى قصائد تشابهت فى القوافى والأوزان فيحكم بأن الشعر لم ينتقل من حال إلى حال ، وإن اختلفت الأماكن والأجيال

ولو نظر غيره هذه النظرة لقلنا إنه يحكم أحكاماً عامّية ، ولدعوناه إلى الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية

من واجب أحمد أمين أن يفهم أن أساتذة الجامعات لا يصح لهم الوقوف عند ظواهر الأشياء ، فأقل مزية لرجل الجامعة أن يكون فى إحساسه كالشاعر الذى قال :

أسمع فى قلبى دبيب المنى وألمح الشبهة فى خاطرى

وأحمد أمين أستاذ فى كلية الآداب ، وهى كلية على جانب عظيم من الكبرياء ، وهى تأبى الاعتراف بأى معهد يقارعها فى هذه البلاد ، ولا تنظر إلى سائر المعاهد الأدبية إلا بعين الاستخفاف

والمنزلة التى صارت إليها كلية الآداب بفضل جهود أساتذتها الكبار من المصريين والأجانب توجب على الأستاذ أحمد أمين أن ينظر فى كل كلمة يكتبها خمسين مرة قبل أن يعرضها على الناس

فأين كان حرصه على مكانة تلك الكلية يوم زعم أن الأدب العربى لم يتطور قط ، وأن الأدب الجاهلى ظل يسيطر عليه من عصر إلى عصر حتى خنق مواهب أحمد شوقى وحافظ ابراهيم ؟

* * *

وهنا يتسع المجال لعرض سرقة جديدة من سرقات أحمد أمين

فهل يعرف هذا الباحث الكبير من أين أخذ القول بأنه يجب أن نضع القنبلة مكان القوس ؟

لقد سرق هذه الفكرة من باحث لا أنوّه باسمه إلا وأنا كاره لأنى أبغضه أشد البغض وقد أرجع إلى مصاولته بعد أيام أو بعد أسابيع.

هـذا الباحث هو الدكتور طه حسين الذى عرّف الجمهور بالأستاذ أحمد أمين

ولكن متى قال الدكتور طه هذا الكلام ؟

إن أحمد أمين يظن أن ذاكرة الناس ضعفت كل الضعف، وأنه لم يبق فى مصر أو غير مصر من يتذكر مقالة نشرت منذ عام أو عامين، فكيف يتذكرون مقالة نشرت منذ أكثر من عشر سنين؟

فما هى تلك المقالة ؟

هى مقالة الدكتور طه حسين فى نقد بائية شوقى فى يوم (سقاريا) التى عارض بها بائية أبى تمام فى يوم (عمورية) ، بائية شوقى ذات المطلع :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العرب

وقد نص الدكتور طه فى تلك المقالة على أن شوقى استعمل فى وصف الحرب التركية اليونانية ألفاظاً وتعابير كانت تعرفها الحروب القديمة ، ولكنها مجهولة عند المحاربين فى العصر الحديث

أنكر الدكتور على شوقى أن يقول فى خطاب مصطفى كمال :

قذفتَهم بالرياح الُهوج مسرجـــةً

يحملن أُسد الشرى فى البيض واليَلَبِ

وأن يقول فى مدح الجنود الأتراك :

والجاعلين سيوف الهند ألسنهم والكاتبين بأطراف القنا السُّلُبِ

وكانت حجة الدكتور طه أن «أسد الشرى» عبارة قديمة وقد لا يفهمها الترك ، وأن «البيض واليَلَب وأطراف القنا السُّلُب» ليست أهم الأدوات الحربية فى هذه الأيام

وقد تأذى شوقى بهذا النقد أشد التأذى لأنه فى ظاهره لا يخلو من بريق، ودعانى إلى الرد على الدكتور طه حسين ولكنى اعتذرت لأسباب أدبية لا يتسع لشرحها المقام ، ولعلى كنت أحرص على مجاملة الدكتور طه فى ذلك الحين

ومقالة الدكتور طه فى نقد بائية شوقى مشهورة جدًّا ، ولكن عند مَن ؟

عند الذين كانوا يسايرون الحياة الأدبية أيام الفتنة بين السعديين والدستوريين والاتحاديين ، وهى مقالة نشرت فى جريدة يومية كانت قليلة الذيوع وهى جريدة الاتحاد ، ولكنها كانت على كل حال مما يطلع عليه الأستاذ أحمد أمين

فماذا يظن أحمد أمين بذاكرة الرجال ؟

هل يتوهم أن النقد الأدبى قد انعدم فى مصر وأنه لا يوجد فى هذه البلاد من يذكر تطور الآراء النقدية من حال إلى أحوال ؟

يجب أن يعرف جيداً أننا سنحصى عليه خطرات قلبه ، وسنردُّها خطرةً خطرةً إلى ما قرأ وما سمع ، فلا يُزْهَى ولا يختال بترديد الحديث المعاد . فهل يقرأ هذا الكلام بعض من كَبُر عليهم أن نهجم على الأستاذ أحمد أمين ؟

إن الذين فُتنوا بحذلقة أحمد أمين لم يكونوا يعرفون أنه ينتهب آراء المعاصرين وغير المعاصرين بلا تهيُّب ولا تخوُّف ، ولم يكن يدور فى خواطرهم أن هذا الرجل له سطوات على الكتب والمقالات يأخذ بها ما يشاء بلا ترفق ولا استبقاء

قد يقال : وما خطر هذه السرقات ؟ وما العيب فى أن يسرق أحمد أمين كلام طه حسين ؟

وأجيب بأن النص على السرقات يشرح تطور الأفكار الأدبية، وذلك مغنم ليس بالقليل

وسترى فى المقال المقبل سرقات أغرب وأعجب ... ومن الله وحده ننتظر حُسن الجزاء على هذا الجهاد

زكى مبارك